بين الترجمان وعشش القرود

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

كنت فى السابعة من عمرى حين سمعت من جدى الحديث التالى :

" منذ ثلاثين سنة ، تفشى بالبلد وباء شديد يعرفه العامة بالشوطة ، ويؤرخ المعمرون اليوم حوادثهم بتلك الشوطة التى فتكت بالكثيرين وحصدت بمنجلها أرواح عشرات الألوف من الأهلين ، وكان الوباء إذا دخل البيت أتى على كل من فيه ثم لا يلبث أن يمتد الى جاره امتداد النار فى الهشيم حتى ضاق بالناس وقتهم عن إقامة المأتم وتبادل العزاء ، وشغلت الجثث لكثرتها كل حداء . وقد وجد اللاء فى بولاق مرتعا خصيبا ، فكنت لا تسمع فى بيوتها غير صراخ يحاوبه صراخ ، ولا تشهد إلا جنازات تتبع جنازات " .

وتابع جدى حديثه فقال " وكانت أشد المناطق تأثرا بالوباء هى منطقة الترجمان لكثرة أهليها وسوء تنظيم مبانيها ، حتى رأينا الناس هناك يعمدون الى عربات النقل يكدسون عليها جثث موتاهم ، فرأيت إذ كنت عمدة لبولاق ألا مخفف لهذه البلوى غير عمل حازم لتطهير الحى ، وسارعت إلى ولاة الأمور أشير عليهم بعزل سكان منطقتى الترجمان وسوق العصر ، والمبادرة بهدم عششهم وإحراق مخلفاتها مع ما يوجد بها من أسمال وسقط متاع "

واستطرد شيخنا فى حديثه فقال " وقد وجد رأيى ترحيبا من الإدارة ومن رجال الصحة فجمعنا الفعلة وقمنا بهدم العشش بعد أن أخرجنا الأحياء منها ، وكدسنا أخشاب الأكواخ وما حوت من فرش وأسمال ، أكواما فوق أكوام ، ثم أشعلنا النار فيها بين بكاء وعويل أصحابها الذين باتوا رجالا ونساء فى العراء وفى معزل عن الأهلين .

واستوى جدنا على مقعده ثم قال " عدت عقب هذا الحادث إلى دارى فقابلنى هناك الشيخ رمضان وهو ولى يقوم ضريحه اليوم بمسجد أبى العلاء ، وكان الشيخ رمضان عندى بمنزلة المعلم والوالد وما إن رآنى حتى انهال على تعنيفا وتأنيبا على ما فعلت وأنذرنى بانتقام من الله شديد " .

وزفر محدثنا زفرة عميقة ثم عاد يقول : " ولم يكد الشيخ رمضان يبرح بيتى حتى شعرت بالحمى تدب فى جسدى فلزمت فراشى ولم أقم منه إلا فاقد البصر . تخليت عن عملى وعكفت على العبادة والدين أدرسه على كبير بالأزهر وألقنه العامة بمسجد الواسطى الذى أقمته بالحى ليكون معزلى وخلوتى وكل ما أرجوه أن يغفر لى ربى ما اقترفت فى حق أبناء الترجمان " .

انتهى جدى الشيخ ابراهيم غالى من حديثه وكانت غايته أن ينهانا نحن أبناءه وأحفاده حتى لا يصيبنا ما أصابه ، ومضت السنون ونحن لا نرى فيما أقدم عليه جدنا إلا قسوة لا تعدلها

غير قسوة نيرون وطغيان فرعون حتى شاءت الأيام أن أحمل أمانة الكتابة فى هذه الصحيفة أحاول فيما أعالج الكشف عن خفايا البلد وخباياه، فكان لزاما على أن أجوب الترجمان حارة حارة ودربا دربا حتى اذا أتممت جولتى خرجت أترحم على جدى وأكبر فيه ما فعل ، وأتمنى لو أتيح لى ما أتيح له ؛ وأصحبك فى جولة تشاهد فيها جانبا مما شاهدت .

فهذك غربى بناءى سوق الفاكهة ومصلحة التليفونات وعندملتقى أكبر شارعين فى العاصمة شارع فؤاد الأول وشارع الملكة مازلى تطلع بولاق بأسوإ أحيائها . الترجمان وسوق العصر وعشش القرود وأكواخ القلالية .

سوق العصر وعشش الترجمان :

أما سوق العصر فهو كما تدل عليه تسميته مكان يروج فيه البيع والشراء ، أما ماذا يباع به وما الذى يشتريه الناس منه فهذا ما يهمنا تفصيله لغرابته ، . ذلك بأن بضاعة السوق تقوم على سلع ثلاث : الأول وهى أهمها " الغسيل والأكلمة والملابس والأحذية والمفاتيح وأغطية المجارى وأجراء السيارات والدراجات يجدها "السائر معروضة أمام واجهات الحوانيت هناك كل مصفوف على قطع من الخيش أو الحصير أو محمول على أكتاف المنادين والدلالين . وثالثه الأثاث هى تجارة الفضلات من مخلفات الجيش أو أنقاض القمامة أو عقاب السجاير و بقايا التبغ " التبك " والشاى الذى سبق استعماله بالمقاهى والقواوير الفارغة . وهناك بضاعة لها مكانها فى السوق هى الخبز الجاف مما يأتى به المتسولون ويبيعونه النوبية وأصحاب حانات الجمعة "البوظة" .

فإذا تركت واجهة الحى ودلفت إلى داخله ألفيت نفسك فى طريق ضيقه لا تكاد تقوى على السير فيها لقذارتها وانك لتخطو فيها خطوات معدودات حتى تجدك فى بيئة غريبة اختلط فيها الانسان بالحيوان ، ففيها العنزات والحمير وفيها أوجار القردة كل قرد جوار عشة صاحبه. هذه ياصاحبى مساكن المشتغلين بترويض القردة أو كما يسمونها "عشش القرود".

وقد يكون من المضحكات فى مجال لا نجد فيه غير المبكيات أن نشرك القارئ بعض ما رأينا فى ذلك الحى العجيب . . نقد عن لى أن أدخل إحدى تلك العشش فإذا بصاحبها مشغول بإعطاء الدرس ، . . واستأذنت الأستاذ أن يقبلنى مستمعا بين تلاميذه فلم يخل الرجل بعلمه أن يبذل لقاء ما سددته اليه من الرسوم .

دخلت " الحاصل " والحاصل هو القاعة الكبرى فى تلك البيوت ، دخلته فرأيت فى تلك القاعة قاعة المحاضرات أربعة من الطلبة النجباء، أما أولهم فخمش وثانيهم قرد وثالثهم كلبهم وقد أبى صاحبنا إلا أن يطبق النظم الجامعية كاملة فلم يحرم الفصل من آنسة لطيفة هى عنزة ظريفة تزين الجمع وتثبت احترام مبدأ اختلاط الجنسين ! !

بدأ الدرس وكل طالب جالس فى ركن من أركان القاعة ، وكان الموضوع فى تعليم القرد " التحية باليد " ورغما عن المادة ٨٨ من قانون نظام المدارس فقد كانت العصا هى وسيلة الإيضاح الفريدة ، والضرب هو الأسلوب الوحيد لإدخال الفكرة فى أذهان الطلبة الأذكياء .

واستهل الأستاذ درسه القيم بضرب الحمار آمرا إياه بعمل إشارة السلام . . . فلم يفعل وإذا استحال على الحمار أن يفهم ما يريده صاحبه وأن يرفع حافره بالسلام ضربه ثانيه ثم انتقل الأستاذ إلى العنزة فلم تكن أذكى من زميلها فتبعها بالكتاب وانهال عليه بالضرب الموجع دون أن يصل معه الى نتيجة وكان الرجل حين يضرب الحيوان باليمين يرفع يساره بالسلام حتى اذا انتهى إلى القرد رأينا ذلك الحيوان الذكى يقف على قدميه رافعا يده بالتحية وهو شاخص ببصره إلى عصا أستاذه التى تعلم مما فعلت بغيره غاية الرجل وما يطلبه . . .

والمشتغلون بالترويض فئة بائسة تعمل عملا فيه ترويح لنفوس الناس ، وإذا كان بعضهم يضطره فقره الى سلوك مسلك غير شريف بتدريبه القرد على النشل إلا أن أكثرهم هم وحيواناتهم خليقون بكل عطف وإحسان .

فى جامايكا الترجمان :

وإذا كانت حانة جامايكا كما يصورها الروائيون من أعجب الحانات فليس أعجب من أن نسمى قهوة " المعلم حموده حمص الوطنية " بجامايكا الترجمان .

عرجنا على المقهى إذ أنهكنا التجوال وأضنانا السير ، وقدمنى رفيق المعلم " عبد ربه " إلى إخوانه باسم الأسطى عبده السواق " مهاجر استنجريه وجدع بجبوح وإنسان ..." .

وأردت أن أثبت أنى قد القول فأخبرت الجماعة بأن عليهم الطلب وعلينا الحساب .

وأقبلت على القوم أحدثهم بأسلوبهم عن الإسكندرية والغارات التى شهدناها بها ، وأستمع بدورى إلى أحاديثهم التى تعطينا صورة صادقه لعقلياتهم ونفسياتهم ، فقد تناولنا من الحديث عشرات الموضوعات دون أن تم موضوعا واحدا ، بينما يسألك الواحد عن الحرب ومتى تنتهى يعلق الثانى على سؤاله بأن مولد اسماعيل الأمبابى يأتى قبل مولد أبى العلاء ثم يقفز ثالث فى غير مناسبة ليفسر لك سر تسمية العاصمة بالقاهرة ويرجعه إلى أنها قهرت الدول ، قهرتهم ونكدت عليهم .

ولقد أوقفنى ما سمعته على بعض ما يقوم عليه القوم ، فهؤلاء جماعة من الصعايدة من باعة الفاكهة الجائلين يتحدثون مباهين بالكوامل الذين ينتسبون اليهم . يجاورهم جماعة من الخبازين من العدويه أبناء بنى عديات يتكلمون عن الخلط ووزن الخبز وما فعلوه مع الواد الافندى بتاع التموين ، وهناك على بعد مناقشة حادة يتطاير إلى سمعك بعض عباراتها .

خرجنا من المقهى فى طريق العودة إلى شارع فؤاد الأول ماريز بالقلاية ثم بالمحمرة .

سرنا فى الحوارى أو كما يسمونها العاوات تعلو بنا ، انجاد الطريق وتهبط بأرجلنا وهادها ونحن فى طريقنا لا نجد إلا قذارة ، وشاء لسانى أن ينعك من عقاله فأبدى تأففى مما آذى بصرى وحبس أنفاسى ، وما إن سمع عبد ربه نقدى حتى انقلب على وثار فى وجهى صائحا "وساحة إيه يا أسطى عبده ولما حتتنا وسخه جاى تسكن فيها ليه هنا حاجة مملكه . هنا أحسن من استجريه" . ولم أجد بدا من الانسحاب وحدى تاركا الميدان لابن القلاية ورئيس الترجمان .

أضرار وأخطار :

تضم المناطق التى جلونا أمرها فى هذا المقال نيفا وسبعين ألف نسمة وقد بينا فيما أسلفنا كيف يعيش القوم وعلى ما يقيمون .

ليست المشكلة التى نعالج مشكلة حى ولا أحياء ، بل هى مشكلة جمهور كبير من الشعب ، سكنه وعيشه وصحته ، نمهد لعرضها بهذه الجولات لتكون أقرب الى الحس وأوحى الى التأثير والفهم .

السكن رمز لا يخدع لمستوى الشعب :

يقول مريت بك بطرس غالى فى كتابه "سياسة الغد" : "إن السكن هو العنصر الأساسى فى معيشة الإنسان ، والعلامة الحقيقية على ثروة السكان ورخائهم . والرمز الذى لا يخدع لمستوى الشعب الاجتماعى ، ودرجة حضارته القومية" .

فقل لى بربك أى مستوى أو أية حضارة تلك التى يلمسها الأجنبى فى ديارنا وسكن مواطنينا ، وما قيمة الدعاية تبذل فيها الكثير ، ومساكن الشعب وأحياؤه على هذه الحال .

فتلك النعامة التى تخفى رأسها بين "شبرد" و "الكونتيتنال" يبين جسمها واضحا كبيرا فى دروب البلد التى لا حصر لها .

قلنا غير مرة فى هذا المكان ، ونعود اليوم فنكرر ما قلناه بأن مصيبة السكن فى هذا البلد وآفة تنظيم أحيائه مرجعها فى الغالب الى أمر واحد وسبب لا ثانى له هو نظام الحكر الذى تؤجر بموجبه الأرض للبناء ، وقد ذكرنا أنه لا يرجى لمشكلة السكن حل ما دام نظام الحكر قائما أو بعبارة أصح ما دامت فوضى الحكر فاشية ، فتلك الأحياء التى أطلعتك على ما فيها تقوم كلها على أرض محكرة ، فالترجمان حكر لوزارة الأوقاف ، وحى القلاية حكر لبطريركية الأقباط ويتقاضى وقف الترجمان من صاحب البناء قرشا كل شهر عن المتر المربع أما البطريركية فتفرض على المالك ثمانية مليمات للمتر فى الشهر ، وما دامت الأرض ملكا لغير البانى فلا سبيل ولا أمل فى أن نرى غير العشش والأكواخ .

وفى مقالنا " على ضفاف النيل " عرضنا لمشكلة الحكر وقدمنا بين يدى ولاة الأمور حلها هينا ميسورا ، وما أيسر الأدواء تعالج بما لا يمس الخزانة ولا يرهق الميزانية ، فما على الحكومة الا أن تصدر تشريعا تحرم به البناء فى الأراضى المؤجرة أو بعبارة أخرى تجمد بجرة قلم فوضى الحكر وتريح البلد من شروره .

أما المبانى القائمة الآن بالأراضى المحكرة فإنا نرى أن تؤلف لجنة من ممثلين لمصالح الأملاك والتنظيم والمساحة ومندوبين من وزارة الأوقاف والصحة والشؤون الاجتماعية لتقدير أثمانها وتحديد مساحات مواقعها وأعداد السبيل لإبدالها بما يعادل قيمتها بأملاك الدولة فى أطراف المدينة عند الجبل الأحمر أو فى أبى زعبل حيث أقيمت نواة مدينة العمال الجديدة حيث تقيم الأوقاف بمعونة الحكومة و إشرافها مساكن للفقراء ، مساكن صحية فى شوارع منظمة تؤجر الى الأهلين بأجور زهيدة على ألا يهدم القديم الا بعد بناء الجديد .

وقد يحسب البعض أن مشروعا كهذا سوف يكلف الخزانة مبالغ لا قبل لها باحتمالها وخاصة فى مثل ظروفنا الحاضرة ، والواقع أن الحكومة لن تتكبد فى هـذا إلا النزر اليسير . ذلك لأن الأراضى المحكرة فى بولاق سواء فى داخل الحى أو على ضفاف النيل كلها ذات موقع ممتاز فهى تجاور أكبر شارعين فى العاصمة فؤاد الأول والملكة نازلى ولم يخسها قدرها سوى فساد تنظيمها وسوء مبانيها ، فلو أن الحكومة استولت عليها وهدمتها لباعتها بما لا يقل عن خمسة أضعاف الثمن الذى ستقدره لها . فإذا راعينا أنها لن تخرج هذا الثمن نقدا من خزينتها و إنما ستعطى به الأوقاف أرضا من أملاكها ، وجدنا أن فى مقدورها أن تقوم بمشروع بناء أحياء جديدة بالتعاون مع وزارة الأوقاف التى ستتولى استغلال تلك الأحياء لحسابها .

وقيمة أراضى بولاق وموقعها الممتاز لا يخفيان على أحد ، وقد سبق أن طلبت بعض الشركات العقارية بيعها المناطق التى أشرنا إليها فى هذا المقال ، ولكن عقد الوقف من جانب وتراخى الأداة الحكومية من جانب آخر حالا دون إجابة هذا الطلب .

ثم ماذا . . .

ثم انهم يقولون إن بالبلد مشكلات ومشكلات كما يصفونها شائكات . . هل آن لنا أن نجدد البالى ونقيم صدع الواهى . إنه ليسؤونا أن نغفل والعالم يعمل ، وأن نقف جامدين والقافلة تسير .

محمد عبد الكريم